مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 06 (عدد خاص) 2022 ص ص 481-499

إستراتيجيات الإصلاح الاجتماعي والتربوي والثقافي في المجتمع الجزائري عند مبارك الميلي

Strategies For Social, Educational and Cultural Reform In Algerian Society at Moubarak Al-Mili

مخلوفي اسعيد*
المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار قسنطينة (الجزائر)
البريد الالكتروني: Maksad19@yahoo.fr

تاريخ الإيداع	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022/02/27	2022/03/15	2022/04/16

الملخص: يعتبر الشيخ مبارك الميلي رائد من رواد حركة الإصلاح الاجتماعي والتربوي والثقافي في المجتمع الجزائري إبان فترة الاحتلال الفرنسي، فقد استطاع الرجل بذكائه وحنكته الاهتداء إلى مجموعة من الطرق والأساليب التي أثرت في تكوين وبنية فرد المجتمع الجزائري، التي أهلته فيما بعد أن يواجه الاستعمار الفرنسي فكريا واجتماعيا واقتصاديا، وثقافيا من خلال التصدي للكثير من البدع والخرافات التي تنافي في أصولها الدين الإسلامي السمح، وإعادة كتابة الجزائر وفق أصوله الحقيقة رغم المدة الزمنية القصيرة التي عاشها هذا المصلح.

الكلمات المفتاحية: *مبارك الميلي، استراتيجيات الإصلاح، المجتمع الجزائري.*

Abstract:

Sheikh Mubarak al-Mili is considered one of the pioneers of the movement for social, educational and cultural reform in Algerian society during the Period of French occupation, the man was able with his intelligence and skill to find a range of ways and methods that influenced the formation and structure of the Algerian community, which later qualified him to face French colonialism intellectually, socially and economically, and culturally by addressing many innovations and superstitions that are contrary to the islamic religion allowed, and to rewrite Algeria according to its true origins despite the short period of time This reformer lived it.

Keywords: *Mubarak Al-Mili, Reform Strategies, Algerian Society.*

* **المؤلف المرسل**

مقدمة:

لقد عمل الاستعمار الفرنسي في الجزائر منذ الاحتلال، على تدمير كل المقومات الثقافية والحضارية للشعب الجزائري، فهدمت المساجد وأحرقت المدارس والزوايا، ونشر النصرانية بكل أشكالها وتفشي الجهل والفقر والأمية وانتشار البدع والخرافات والمنكرات كالسحر والشعوذة، والتوسل إلى الاضرحة والأولياء والتبرك بهم، وسيادة ثقافة الولي والمرابط وتقديسهم في ظل هذه الظروف الخاصة ظهر مجموعة من المفكرين والمصلحين اللذين اخذو على عاتقهم مواجهة الظلال والفساد ونشر العقيدة الصحيحة بعدما نهلوا من شتى العلوم والمعارف في عيد الجوامع الثقافية منها جامع الزيتونة والأزهر الشريف وغيرها، وعلى رأس هؤلاء مبارك الميلي.

يعتبر الشيخ بارك الميلي من بين الرجال الذي ن ساهموا بقوة في إرساء الحركة الإصلاحية في الجزائر وعملوا بفعالية في نشر أفكارها بمختلف الوسائل، من تأسيس المدارس للتعليم، والوعظ والإرشاد في المساجد، والمساهمة بالمقالات المختلفة في الصحافة الإصلاحية، فقد لعب دورا كبيرا في بتأسيسه لمدرسة عصرية، من خلال مؤلفاته المميزة "رسالة الشرك" و "تاريخ الجزائر في القديم والحديث". وقد تجلى تأثيره على الحياة الفكرية، والحركة الإصلاحية بشكل كبير وواضح. فمن هو مبارك الميلي؟ وما هي أهم الإسهامات العلمية التي قدمها لأمته؟ وما هي الإستراتيجيات الاجتماعية والثقافية والدينية التي اتبعها في حركته الإصلاحية مع المجتمع الجزائري؟

1. نشأته وتكوينه العلمي:

نشأ الشيخ مبارك الميلي يتيمًا، فقد توفِّي أبوه وعمره أربعُ سنين، وبُعيد وفاة والده توفِّيَت أمُّه تركيّة بنت أحمد بن فرحات حمروش وذلك سنة 1902م، فكفله جدُّه رابح الذي توفِّي سنة 1908م، ثمَّ كفله عمّاه علَّاوة وأحمد.

وبدأ الشيخ تعليمه بأولاد مبارك بالميلية تحت رعاية الشيخ أحمد بن الطاهر مزهود حتى أتمَّ حفظ القرآن. ثم انتقل إلى مدينة ميلة وكانت آنذاك حاضرة علميَّة كبيرة تستقطب طلاب حفظ القرآن بصدر رحب وكرم مشكور، فواصل تعليمه بها بجامع سيدي عَزُّوز على يد الشيخ المعلِّم محمد بن معنصر الميلي لمدة أربع سنوات، ولم يتجاوز عندها السن الثانية عَشرة. ثم في سنة 1918م توجّه إلى مدينة قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري؛ إذ التحق بالجامع الأخضر ليتابع تعلُّمه على يد الإمام عبد الحميد بن باديس، وهناك وجد بغيته في دروس الأستاذ الحيّة، وتلقَّى منه الأفكار الإصلاحية بحماس وإيمان، فكان من أنجب تلاميذه ومن الجادّين المجتهدين الراغبين في التحصيل، فأعجب به أستاذه وأحبَّه كثيرًا وقرَّبه إليه. وبعد ذلك رحل إلى جامع الزيتونة بتونس، وأخذ عن جلّة رجال العلم والمعرفة به، منهم: الشيخ محمد النخلي القيرواني، والشيخ محمد الصادق النيفر، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، والشيخ بَلَّحْسَن النجار، والأستاذ محمد بن القاضي وغيرهم، وظلَّ هناك حتى تحصَّل على شهادة العالمية سنة 1924م.

عُرف الميلي بسلوكه العلمي الرّزين في جامعة الزيتونة، وهو ما جلب له تقدير شيوخه وزملائه على السواء، وقضى فيها نحو أكثر من أربع سنوات من التحصيل العلمي، كُلِلت في 1924م بنيل شهادة العالمية - التي كانت تسمَّى بشهادة التطويع. بعد عودته إلى الجزائر انخرط الشيخ مباشرة في العمل الإصلاحي, إلى جانب إخوانه من العلماء المصلحين، وفي البداية استقر الشيخ للتعليم في مدينة قسنطينة، يدرس لطلاب العِلم بالمدرسة الباديسية حتى 1927، ثم دَعاه سكان مدينة الاغواط بالجنوب الجزائر ي للتعليم فافتتح هناك مدرسة جديدة عَرفت قبولا متزايداً ونشاطًا متناميًا، حتى أصبحَت حديثَ الخاص والعام، مما أثار تخوُف سلطات الاحتلال الفرنسي من آثارها الإيجابية على الشباب خاصة والشعب عموماً، فمنَعَته من الإستمرار في التعلم، وأمَرَته بمغادرة المدينة بعد سنوات من النشاط المضني فيها (الميلي، 2001، 26).

وكان الأستاذ مبارك الميلي أحد مؤسِّسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأحد أعضاء مجلسها الإداري حيث عُين أمينًا للمال للجمعية بعد إعلانها، لينخرط في النشاط الإصلاحي رسميا في الجزائر عبر كلِّ منابره، فقد كان إماما خطيبا ومعلّما متفانيا وصحفيّا ومؤرخا وكاتبا واداريا مخلصا، ولمّا توفي رئيس الجمعية الشيخ ابن باديس كان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في منفاه في آفلو جنوب غرب الجزائر، انتخبه إخوانه العلماء – وهو في منفاه- رئيساً جديداً لهم، فاضطلع الميلي مع بقية العلماء ورجال الجمعية بمهامها والقيام بأعمالها إلى أن عاد رئيسُها المنفي إلى أعماله فكان خيرَ عون له عليها، كيف لا وقد وصف الإبراهيمي نفسه مكانتَه وسيرتَه فيها بقوله: وانّ لأخينا مبارك الميلي على جمعية العلماء حقوقاً فقد كان مرجعها يوم تحلو لك المشكلات وتضل الأراء، فيشرق عليها بالرأي كأنه فلق الصبح وقد كان معقلَها يوم تشتبه المسالك، وتكاد الأقدام تزلّ، فيثبت على الحق كالجبل الراسي، وكان منها بحيث لا يجترئ عنها مجترئ، ولا يفتري عليها مفترٍ، إلا رمته منه بالسيف الذي لا تنبو مضاربه.

وفاته:

بعد خروج الشيخ مبارك –رحمه الله- من مدينة الأغواط حوالي سنة 1933م ابتلي بداء عضال ومرض مزمن مضني، أنهك قواه ونغّص عليه حياته، ألا وهو داء السكري، وقد حاول الشيخ علاجه غير مرّة في الجزائر وخارجها، فسافر من أجله إلى فيشي بفرنسا، لكن سرعان ما عاوده المرض واشتدَّ به، خصوصًا عند سماعه بخبر وفاة شيخه وأعزّ صحبه ورفيق نِضاله ودربه الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس في 16 إبريل 1940م، قال –رحمه الله- عن ذلك: "عندما سمعت لدَى وصولي إلى قسنطينة بموته شعرتُ أن الدورة الدموية أصبحت تسير في عكس الاتجاه المعهود، وعرفت في الحين أن داء السكر قد عاودني، وأنه لن يفارقني حتى يقضي علي"، إلى أن وافته المنية في يوم 24 صفر سنة 1364هـ، الموافق لـ 9 فبراير سنة 1945م.

ثناء العلماء عليه:

1- قال الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله: "أخي مبارك، من أحيا نفسًا واحدة فكأنّما أحيا النّاس جميعا، فكيف بمن أحيا أمّة كاملة؟! أحيا ماضيَها وحاضرها، وحياتهما عند أبنائها حياة مستقبلها، فليس والله كفاء عملك أن تشكرك الأفراد، ولكن كفاؤه أن تشكرك الأجيال، وإذا كان هذا في الجيل المعاصر قليلا، فسيكون في الأجيال الغابرة كثيرًا، وتلك سنّة الله في عظماء الأمم ونوابغها، ولن تجد لسنة الله تبديلا."

2- وقال العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله تعالى: "حياةٌ كلّها جدّ وعمل، وحي كلّه فكر وعلم، وعمر كلّه درس وتحصيل، وشباب كلّه تلقٍّ واستفادة، وكهولة كلّها إنتاج وإفادة، ونفس كلّها ضميرٌ وواجبٌ، وروح كلها ذكاء وعقل، وعقل كلّه رأي وبصيرة، وبصيرة كلّها نور وإشراق، ومجموعة خلال سديدة وأعمال مفيدة قلَّ أن اجتمعت في رجل من رجال النهضات، فإذا اجتمعت هيأت لصاحبها مكانه من قيادة الجيل، ومهّدت له مقعده من زعامة النهضة، ذلكم مبارك الميلي الذي فقدته الجزائر من ثلاث سنين.

3-وقال الشّيخ العربي التبسي -رحمه الله- في تقديمه لكتاب الشّرك ومظاهره: "فنهض بهذا الفرض الكفائي الأستاذ المحقّق مؤرّخ الجزائر الشّيخ مبارك الميلي، أمين مال جمعيّة العلماء، وجمع رسالة تحت عنوان: رسالة الشّرك ومظاهره، خدم بها الإسلام ونصر بها السنّة، وقاوم بها العوائد الضالّة والخرافات المفسدة للعقول.

4- وقال الأستاذ المؤرّخ أحمد توفيق المدني رحمه الله تعالى: "لقد كان من رجالنا المعدودين، وكان من بُناة قوميّتنا المذكورين، وكان من الذين خلّدوا أسماءهم بأعمالهم الجليلة وجهادهم الموفق في صفحات التاريخ الوطني الحافل الثري.

5- وقال الشيخ أحمد حماني رحمه الله تعالى: "العلّامة الجليل الشيخ مبارك بن محمد الميلي رحمه الله، أكبر تلاميذ الأستاذ ابن باديس ومدرسته علمًا وفضلًا وكفاءة، وأحد

علماء الجزائر وبناة نهضتها العربية الإصلاحية الأفذاذ، وأوّل من ألّف للجزائر باللغة العربية والعاطفة الوطنية تاريخاً قوميًّا وطنيًّا نفيسًا". وقال: "وكان قلمه شديدا في حرب الضّلالات والبدع والخرافات، ودجل بعض المنتسبين إلى التصوّف، وخصوصًا دعاة الحلول ووحدة الوجود، لبُعدِهم عن الحقّ في القول والاعتقاد والسّلوك.

دعوته وجهاده:

الشيخ مبارك الميلي من أشهر رجال الإصلاح بالقطر الجزائري، فقد نشط في أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر، وكان عضوًا بارزًا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وتتميَّز أفكاره ومبادئه بالدعوة إلى إقامة التوحيد ومحاربة الشعوذة والخرافة ومظاهر الشرك والبدع.

بعد تحصيله على شهادة التطويع بجامع الزيتونة رجع إلى وطنه ليتولّى مهمّة التربية والتعليم والدعوة إلى الله تعالى، فشرع بعد تخرجه مباشرة يعلِّم بمكتب سيدي بومعزة وسيدي فتح الله بقسنطينة، وتصدَّى لإحياء روح الهوية الإسلاميَّة في البنين والبنات، وأنار عقولهم بما آتاه الله من العلم والحكمة.

وكان مع الشيخ مسوَّدة قانون أساسيّ ليحثَّ الطلاب وأهل العلم على إنشاء مطبعة كبرى تطبع المخطوطات، وتنشر الجرائد والمجلات؛ لتحيا أمّته حياة عمليّة لا نظريّة، ووجد أستاذه عبد الحميد قد بعث بقلمه صيحة مدوِّية في أرجاء الوطن، داعية إلى الخلاص من ربقة الشرك والتحرر من أغلال العبودية للبدع، فأصدر جريدة "المنتقد" ثم أخرج بعدها "الشهاب" الأسبوعي، وظلَّ كذلك يكافح وحده إلى أن رفع الشيخ مبارك الميلي قلمه وانضوى تحت لواء أستاذه يؤازره ويناصره، فكان -رحمه الله- يشارك في تحريرهما، ويسهم في تحبير المقالات النافعة لهما بإمضائه الصريح مرة، وبإمضاء "بيضاوي" مرّة أخرى.

وفي سنة 1927م انتقل إلى الأغواط بدعوة من أهلها، فوجد منهم الإقبال العظيم، والتفَّت حوله ثلة من الشباب نفخ فيهم روح العلم الصّحيح والتّفكير الحر، وقضى في هذه البلدة سبع سنوات أسس فيها "مدرسة الشبيبه"، وهي من أولى المدارس العصرية النادرة في ذلك الوقت، هدفها تعليم أبناء الجزائر بمناهج عصرية متحررة من سطوة الطرقية المتخلفة التي دخلت عليها الشعوذة والخرافات السائدة في ذلك الوقت، فأعجب سكان المدينة بمناهجه التجديدية الإصلاحية في التعليم، وبدأ تأثيره يتنامى بين السكان، حيث لاقى ترحيبًا وتلهّفًا في الأخذ بأفكاره التي تدعو إلى إصلاح المجتمع والتحرُّر من قيود الشعوذة والخرافات السائدة بين أوساط أهل العلم في ذلك العصر وترك الطرق الصوفية التي اعتبرها عبئًا ثقيلًا وعائقًا في طريق النهوض والتقدم. وقد تخرج من هذه المدرسة ثلة من الطلبة كان لهم فيما بعد دور بارز في الحركة الإصلاحية ومن أشهرهم: الشيخ أبو بكر الحاج عيسى الأغواطي، والشيخ أحمد بن أبي زيد قصيبة، والشيخ أحمد شطة بن التهامي.

كما قام الشيخ أيضًا بتأسيس أوّل نادٍ رياضيٍّ بالمدينة، بالإضافة إلى "الجمعية الخيرية لإسعاف الفقراء والمساكين والأيتام"، فكان لها أثر إيجابيّ في ميدان البرّ والإحسان.

وكان له دروس ليليّة في الوعظ والإرشاد يلقيها بالمسجد على عامة الناس؛ مما كان له الأثر البالغ في النفوس، وكذلك كان يخرج إلى مدينة الجلفة شمالًا ومدينة بوسعادة شرقًا ومدينة آفلو غربًا لإلقاء مثل تلك الدروس من حين إلى آخر على أهلها، فيدعوهم للإصلاح والتمسك بالكتاب والسنة ونفض غبار الجهل والكسل ومحاربة البدعة في الدين.

وعندما توفّي الشيخ عبد الحميد بن باديس في أبريل سنة 1940م خلفه الشيخ مبارك الميلي في إدارة شؤون الجامع الأخضر بقسنطينة والإشراف على الدروس. وكان الشيخ يقوم بعدة رحلات عبر القطر الجزائري لتفقد شُعَب جمعية العلماء الجزائريين، وسافر

أيضا إلى فرنسا في سنة 1938م في مهمَّة علميَّة واستشفائية، والتقى خلالها برجال الإصلاح ومندوبي جمعية العلماء في فرنسا، وعلى رأسهم الشيخ سعيد صالحي والشيخ سعيد البيباني والشيخ محمد الزاهي.

آثاره العلمية:

على الرغم من عمر الشيخ الميلي القصير (47 عامًا) وملازمة المرض له واشتغاله بالإصلاح والدعوة إلى الله تعالى وبناء الرجال، إلا أنه خلف سِفْرين نافعين:

الأوّل: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، في جزأين، ولم يتمَّه بل توقف عند ابتداء الدور العثماني، وهو كتاب حافل، أثنى عليه غير واحد، منهم شيخه العلامة ابن باديس رحمه الله الذي بعث إليه برسالة جاء فيها: "وقفت على الجزء الأول من كتابك: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، فقلت: لو سميته: حياة الجزائر لكان بذلك خليقًا، فهو أوّل كتاب صوّر الجزائر في لغة الضاد صورة تامة سويّة، بعدما كانت تلك الصورة أشلاء متفرقة هنا وهناك. وقد نفختَ في تلك الصورة من روح إيمانك الديني والوطني ما سيبقيها حيّة على وجه الدهر، تحفظ اسمك تاجًا لها في سماء العُلا، وتخطّه بيمينها في كتاب الخالدين".

الثاني: رسالة الشرك ومظاهره، وهو كتابٌ في غاية النفاسة في بابه، فريدٌ في موضوعه، لم ينسج على منواله، وقد أقرّ المجلس الإداري لجمعية العلماء ما اشتمل عليه، ودعا المسلمين إلى دراسته والعمل بما فيه، وحرّر هذا التقرير كاتبها العام الشيخ العربي التبسي -رحمه الله تعالى- بقلمه، فعدها "في أوليات الرسائل أو الكتب المؤلفة في نصر السنن وإماتة البدع، تقرّ بها عين السنة والسنيِّين، وينشرح لها صدور المؤمنين، وتكون نكبة على أولئك الغاشين للإسلام والمسلمين من جهلة المسلمين، ومن أحمرة المستعمرين الذين يجدون من هذه البدع أكبر عون لهم على استعباد الأمم، فيتخذون هذه البدع التي ينسبها البدعيّون إلى الدين الإسلامي مخدّرًا يخدّرون بها عقول الجماهير، وإذا تخدّرت العقول

وأصبحت تروج عليها الأوهام وجدت الأجواء التي يرجوها غلاة المستعمرين للأمم المصابة برؤساء دينيّين أو دنيويين يغشّون أممهم ويتاجرون فيها".

2- إستراتيجيات الإصلاح الإجتماعي والثقافي والديني عند مبارك الميلي :

أ- الدعوة إلى العقيدة الإسلامية:

رأى الشيخ مبارك الميلي في خطابه الإصلاحي أن ترك القرآن يفضي إلى الجهل، وأن الرجوع إلى الجهل بعد العلم شديد، وأن الهداية والنور يستمدان من القرآن والسنة، ويورد الشيخ مبارك الميلي قول محمد عبده في الإرشاد المؤثر للقرآن: "وإن في القرآن من التهذيب ودعوة الأرواح إلى ما فيه سعادة ورفعها من حضيض الجهالة إلى أوج المعرفة، وإرشادها إلى طريقة الحياة الاجتماعية ما لا يستغني عنه من يؤمن بالله واليوم الآخر، وما هو أجدر بالدخول في الفقه الحقيقي، ولا يوجد هذا الإرشاد إلا في القرآن"، ويزاوج الشيخ مبارك بين العلم والدين فيقول: "إن حماية الدين لا تكون إلا بالعلم، وإن أصل علم الدين الكتاب والسنة (الميلي، 2001).

ولم تغفل أي دعوة من دعوات الميلي التي ظهرت في فترة تواجده بجمعية العلماء المسلمين من تأكيد مكانة الدين الإسلامي، إذ لا يمكن إهمال حقيقة أن الدين هو المكون الأبرز لهوية المجتمع العربي، وقد ظهر حتى الآن أنه الأقدر على تعبئة الجمهور، فها هي الجزائر تعيش مع العقيدة منذ أن أسلمت في القرن الأول الهجري، حين (دخلها الفاتحون العرب بالإسلام دين الله، من أمثال عقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار، الذين كان لهما الدور الأهم في نشر الإسلام في ربوع الجزائر الكريمة، وقَدم مع هؤلاء الفاتحين بعض الفقهاء من أجل تمكين العقيدة في قلوب الجزائريين وأذهانهم، حتى ثبت الجزائريون الأمازيغ على دين الله، على عقيدة الإسلام، ثم غدوا يدافعون عن هذه العقيدة بأموالهم وأرواحهم بالنفس والنفيس، فأصبحت هذه العقيدة تشكل كيانهم الجديد.

وقد برز في الخطاب الإصلاحي علم أصول الدين، هدف إثبات العقائد الدينية، بالدليل والبرهان دفاعا عن هذه العقيدة، كما برز فيه علم أصول الفقه، ليستنبط الأحكام الشرعية من أجل العمل، فدعم هذا الخطاب تأصيل الأصول والقواعد الشرعية، فالخطاب الإصلاحي ليس مجرد عرض للنصوص.

ب - التمسك بالتراث:

كانت إستراتيجية مبارك الميلي في لإصلاح المجتمع بالعودة إلى الماضي وعادات وتقاليد المجتمع الجزائري، مؤكدا أن صلاح الفرد والمجتمع إنما يكون بالعودة إلى مثل هذا الماضي، ومن ثم يجب الاهتمام بالموروث الحضاري، وخاصة في بدايات الإصلاح والنهوض بالأمة، واستوعب الخطاب الإصلاحي خبرة الماضي في اتجاهه الفكري، هادفا إلى اكتساب قوة الثقة في ذاته، بما تؤهله تلك القوة إلى إخراج المجتمع الجزائري من مستنقع الصوفية المنحرفة التي امتلأت بدعا وخرافات، ثم يتابع سيره في سبيل ترسيخ العقيدة الإسلامية والتمكين للحق في نفوس الناس، لا سيما أن الأمة الجزائرية المسلمة قد تعرضت إلى عدوان فرنسي ظالم، استهدف كيانه الذاتي، وإلى بدع وخرافات دينية وصوفية منحرفة، استهدفت العقيدة الإسلامية الصحيحة للأمة في سبيل حرب المصالح والماديات، فحرص استراتيجيته هذه على استيعاب خبرة الماضي، وكأن هذه الخبرة سفينة نوح عليه السلام، لإنقاذ المسلمين الجزائريين من طوفان تلك البدع والخرافات الضالة المضلة (مزهود، 2006).

ورغم ارتباط الخطاب الإصلاحي بالماضي والدعوة إليه إلا أنه لم يقدس الماضي، ولم يبرأه من أي سلبية، بل كان صادقا مع الذات ومع الآخرين في تعامله مع الماضي، ونعلم أن هذا الصدق هو أول الطريق الصحيح نحو الإصلاح، إذ قال الشيخ مبارك الميلي في عدم خلو عصر النبي، وعصر السلف من الفتن والبدع : "هذا عصره؛ أزهر العصور، وهذه مدينته؛ أكرم المدن، لم يخلوا من المنافقين أحط أصناف المبطلين، وهذا

جيل الصحابة وعهد الخلفاء الراشدين قد تلوثا بالمبتدعين، فقد حدثت البدع زمنهم من غيرهم، فكانت على الجهال ظلمة وفتنة، ولأولي الألباب نورا ورحمة، فمصيبة الجهال فيها القديمة وهم يقدسون كل قديم، ويرون أن ما تقدم جيلهم من الأجيال هو كمال خالص وغير محض، وفائدة العلماء منها الاستنارة بآثار السلف في إنكارها والاستعانة بأنظارهم في تخليص السنة منها (الميلي، 2001).

وحاول الشيخ مبارك الميلي أن يعاود استثمار التراث الفكري في تحقيق معنى الإصلاح، بما يتيح له المقدرة في التعامل مع الواقع الجزائري، فاستطاع أن يبرهن على أصالة كثير من المفاهيم الدينية، وكانت محاولته في برهنة تلك المفاهيم، هي لأجل تطهير الوعي الديني من الخرافات والبدع، ومن هذه البراهين أن مقياس الخير والشر هو الكتاب والسنة، ومنهج السلف الصالح، وفي هذا يقول الشيخ مبارك عن الزردة: "ثم لو كانت الزردات خيرا - وهي كثيرة عندنا - لظهر خيرها، أو لقلّت كما قلّ كل الخير، ولكان السلف أولى منا بكل خير، فهل فعلها النبي، على قبر سيد الشهداء حمزة ؟ أم صنعها الصحابة على القبر الشريف ؟ أم اتخذها التابعون على قبور الخلفاء أو الشهداء أو غيرهم ممن كل واحد منهم من ألف ممن يزردون لهم اليوم ؟ كلا، لم يكن شيء من ذلك ... و ما أعرب عنه الكتاب والسنة وكلام فحول الأئمة من مفسرين ومحدثين و أصوليين، والفقه إنما يكون من هذه العلوم الثلاثة" (الميلي، 2001).

ج - محاربة الطرق الصوفية:

إن الطرق الصوفية قد انحرفت في الغالب إلى الزوايا الفاسدة مع سقوط البلاد تحت وطأة الاستعمار، وأضحت عميلة للاحتلال وعينا له على الجزائريين، وتحول جلها إلى إفساد العقائد ونشر الخرافات والأباطيل التي ما أنزل الله بها من سلطان، ففرقت وحدة الأمة وتماسكها الاجتماعي حتى أصبحت الجماهير الجاهلة تعتقد في شيوخ الطرق الصوفية بأنهم القابضون لأرواح البشر، وأصبح الطرقيون آلة طيعة في يد الإدارة

الاستعمارية لعرقلة نشاط جمعية العلماء، وقد أوحت إليهم تلك الإدارة بعد فشلهم في السيطرة على منظمة العلماء سنة 1932م بتأسيس جمعية تحت اسم "جمعية السنة"، دف تحويل الناس عن جمعية العلماء المصلحين، ولكنها كانت بناءً أسس على شفا جرف هار، فر أولئك الطرقيون من الجمعية وناصبوها العداء واستعانوا عليها بالظلمة ورموها بالعظائم وجلبوا عليها من كل ناحية بكل ما كان عندهم من كيد.

ومن أراء الشيخ مبارك الميلي في هذا الصدد في كتابه تاريخ الجزائر: "إني بذلا للنصيحة أحذرك من متابعة مشايخ هذا الوقت، من لا يثمر الاجتماع بهم خلاف المقت، إذ هم قطاع طريق الله على عباده، وأعداء الأولياء الداعين إلى سبيل رشاده، حيث لا همة لهم إلا جمع العرض الفاني، ولا سعي لهم إلا في تجريد القاصي والداني، أزاحهم الله من جميع البلاد وأراح منهم الدواب والعباد... فعليك يا أخي في مثل هذا الوقت بخاصة نفسك، وتباعد عمن بهم تزيد قاذورات رجسك، وتابع هدى سيد المرسلين وإمام كل النبيين والمرسلين، فكافيك التمسك بالقرآن والتمسك على طريق ولد سيد ولد عدنان، ولا تغرنك ولو فرضا خوارق العادات، فإنها كما تكون للكرامة، توجد لقصد الإهانة، فهذه وصيتي إليك، قد ذكرتها شفقة عليك، دعاني لذكرها رعايةُ المقام، فتقبلها مني وعليك السلام" (مزهود، 2006).

لقد دق الخطاب الإصلاحي للشيخ مبارك الميلي ناقوس الخطر الكبير للطرق الصوفية المنحرفة على العقيدة وسلوك الجزائريين، هذه الطرق تمثل مظاهر الشرك التي تدنس كرامة الفرد المسلم وتقتل فيه روح المبادرة والإبداع، فقد حذرت أرائه الناس من مغبة الوقوع في حبال الطرقيين (بوصفصاف، 2001).

وما قام به الشيخ مبارك الميلي في مدينة ميلة في تأسيسه للمدرسة والمسجد اللذين عملا على إعادة إحياء الميراث الحضاري لهذه المدينة، خاصة أنها مثلت في تاريخ المغرب الأوسط قطبا حضاريا لا يستهان به سواء أكان في العصر اللاتيني المسيحي، أو

العصر الإسلامي حيث كانت عاصمة الفتح الإسلامي، وما جره ذلك من تأسيس علمي جعل من هذه المدينة قطبا حضريا في الشرق الجزائري لا يستهان به (بوحناش، 2019).

ويتجه الشيخ مبارك الميلي مباشرة للأثر الذي تركته الشيعة الباطنية على الإسلام، حيث أدخلت هذه بدعا مستحدثة على الدين، وبما أن التشيع كان قبل التصوف، فقد استمد الصوفية جملة تصوراتهم عن الشيعة، وهنا سيميز الشيخ بين نموذجين من الصوفية قائلا:"الغالب على رجاله العلم بالدين والصدق في العمل وموالاة السلف، فكانوا في الاعتقادات محدثين سلفيين ومتكلمين أشعريين، وفي العبادات مالكيين أو حنفيين أو شافعيين أو حنبليين. وأشهر منهم أبو القاسم الجنيد، فانتسب إليه من بعده في آداب السلوك. وبهذا كان التصوف مرضيا عند أهل السنة لانتساب رجاله إلى الأئمة المرضيين"، ما يبدو جليا أنه استكناه لموقف إصلاحية مغربية أندلسية بدت في متون العواصم من القواصم، والاعتصام درأ للبدع المنافية لعقيدة التوحيد المحررة (بوحناش، 2019).

وعموما يتماهى الشرك عند الشيخ مبارك الميلي مع التصوف الطرقي، فلا يتطرق في رسالة الشرك ومظاهره لأشكال أخرى من الشرك، وإنما انصب على نقد المسار الذي كان عليه التصوف في الجزائر وعموم بلاد المسلمين من تلبيس يكون فيه الولي وليا للشيطان وتكون الكرامة شعوذة وسحراً.

د - الابتعاد عن السياسية:

أعلن الخطاب الإصلاحي عند الشيخ مبارك الميلي دعوته الصريحة والرسمية إلى الإصلاح الديني والتربوي، بالتمسك بمبادئ الإسلام ومكارم الأخلاق، والسير في سبيل العلم والمعرفة للقضاء على الجهل والخرافة، ولم يكن يتناول القضايا السياسية، إنما عمل على المحافظة على وحدة الأمة الجزائرية وضمانا لوعيها بماضيها، ومن ثم وعيها بمستقبلها والعمل له، وسار بالأمة الجزائرية أولا إلى تحقيق كيانا بالعلم ومبادئ العقيدة،

حتى يستقيم مزاجها، إذ إن الخطاب الإصلاحي قد أدرك منذ البدء أن سبب بقاء الاحتلال الفرنسي لمدة قد طالت، يكمن في انحراف المجتمع عن عقيدته الدينية الصحيحة، وانحطاط الفكر لديه، وأن تغيير الحال يتطلب تغيير النفس أولا، لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، لذلك ظلت فكرة الإصلاح الديني حاضرة في خطاب الشيخ مبارك الميلي منذ الوهلة الأولى التي بدأ فيها الخطاب الإصلاحي، لكنه لم يكن يعالج المسائل السياسية، ولم تكن تلك المسائل تشكل له هاجسا، ليس لكونه يجهل أمر السياسة وخطرها على المجتمع، أو لكونه بعيدا عنها، وإنما ابتعد عن السياسة والخوض فيها، لأنها لم تكن لتستطيع تحقيق أهدافه، التي تتلخص في تصحيح انحراف العقيدة في أذهان الناس، وإصلاح المجتمع السائر في طريق الانحراف، ولأجل ذلك عمل على الابتعاد عن المسائل السياسية التي من شأنها أن تعرقل النشاط الإصلاحي في المجتمع (مزهود، 2005).

وقد كان الشيخ مبارك الميلي يدرك جيداً هدف الشيخ عبد الحميد في إبعاد السلطة الفرنسية عن شؤون الدين الإسلامي، إذ إن هدف الإصلاح هو ضمان الحفاظ على العقيدة الإسلامية الصحيحة للجزائريين، وحماية الجمعية في مهدها مما يمكن أن يوقفها عن العمل، ولم يكن ذلك في اية المطاف إلا أسلوبا بارعا في التعامل مع المحتلين من زعيم مجرب حكيم، وبعد وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس طلب الأمين العام للولاية العامة في فرنسا من الجمعية أن تصدر فتوى بأن الذي يحارب في صفوف الجيش الفرنسي ضد ألمانيا يعتبر مجاهدا، فأجابه الشيخ مبارك الميلي بأن الجمعية تضم علماء دين وليس علماء سياسة، والحرب بين ألمانيا وفرنسا ليست حربا دينية، وإنما هي حرب سياسية، فعلى فرنسا أن تلجا في هذا الموضوع إلى عالم سياسي (الميلي، 2001).

د - الدعوة إلى التعليم:

أدرك الخطاب الإصلاحي دور التربية والتعليم في دعوته الإصلاحية، وفي تحقيق أهدافه المتعلقة أساسا بالعقيدة والفكر، فركّز الخطاب الإصلاحي على التعليم الإسلامي، على أن يكون التعليم باللغة العربية، وقد عد الشيخ مبارك الميلي (من الرواد الأوائل الذين أسسوا الحركة الإصلاحية التعليمية العربية في الجزائر مباشرة بعد تخرجه في جامع الزيتونة، وإقامته بقسنطينة عام 1925 م، وبداية ممارسة التعليم بالمكتب العربي بسيدي بومعزة، وكان خطابه الإصلاحي (ينهض بالتربية والتعليم، تثبيتا للعقيدة الإسلامية الصحيحة، وتمكينا للغة العربية، وتشبثا بالتراث الذي خلّفه السلف الصالح في أمور الدين، وبالتراث الفكري الجزائري في الثقافة الوطنية، نحو ما قال جمال الدين الأفغاني: "لا جماعة برامج عملية تفيد المجتمع، وترتبط باحتياجاتهم اليومية، من خلال بناء المدارس وتأسيس الجرائد والأندية، وإقامة الدورات، (فأنشئت مدارس حرة لتلقين تعليم عصري يرسخ المبادئ إصلاحية) ، وكلها تقوم بأعمال قد لمس الناس أثرها الإيجابي، كما بالغ الخطاب الإصلاحي في الاهتمام باللغة العربية إلى درجة اعتبارها من شعائر الدين الإسلامي.

وقد باشر الشيخ الميلي عمله كمدرس في المدرسة الباديسية بقسنطينة، التي عمل بها لمدة سنتين تقريبا لغاية سنة 1927م، لينتقل بعد ذلك لمدينة الأغواط في نفس السنة، فبدأ مهنته في التعليم بتلقين الأجيال مختلف العلوم التي سبق وأن درسها زميله الزاهري، وأضاف عليها مادة التاريخ، ونظرا للنمط الجدي والعصري الذي ادخله الميلي على المدرسة العربية والذي استهوى أبناء المنطقة فقد راح أولياء التلاميذ وأعيان المنطقة يكرمونه ويذللون له الصعاب ويساعدونه على أداء مهامه، وبذلك توطدت العلاقات بينه وبين الأهالي وتوسعت نشاطه التربوي حتى خارج المدرسة (قشاشني، وشقرون، 2020).

ومن الأمور التي تشغل بال الشيخ مبارك هي فكرة النهوض بأعباء المدرسة والارتقاء بها إلى أعلى المراتب التعليمية لتكون اللبنة والنواة للتعليم العربي السوي في كافة أنحاء الوطن، وعليه فقد انكب على إعداد المستلزمات الضرورية لتسيير المدرسة، فوضع الكتب المدرسية الخاصة بكافة الأطوار التعليمية الثلاث، حتى يكون التعليم منظما ويخضع لبرنامج موحد ولا يعتمد على المحاولات العشوائية في الوصول إلى الأهداف التعليمية، كما كان يعتمد أسلوبا خاصاً يرتكز على تعليم القواعد بوضوح وباختصار ليربح الوقت، وسيما ولأنه كان يرى أن تضيع الوقت في سفاسف المور جريمة لا تغتفر (قشاشني، وشقرون، 2020).

ينقسم تلاميذ المدرسة إلى صنفين: (فضلاء، 2014).

- تلاميذ لا يدرسون إلا في هذه المدرسة أي لا يذهبون إلى المدارس الفرنسية ويرجع ذلك إلى أن الاحتلال الفرنسي منذ دخوله إلى الأغواط أنشأ فيها ثلاثة مدارس ابتدائية فهذا الصنف من التلاميذ حرموا من الالتحاق بهذه المدارس، أو أن أوليائهم كانوا يخافون عليهم أن التأثر بالمدراس الفرنسية، ولكن بعد أن فتحت المدرسة العصرية العربية بالمدينة تسارعوا إلى ضم أبنائهم إلى صفوفها، وكان هؤلاء التلاميذ يلازمون شيخهم صباحا ومساء.

- أما الفئة الثانية من التلاميذ فهي التي تحصلت على ثقافة فرنسية في المدارس الفرنسية وقد تمكنت من الاستفادة منها ماديا واجتماعيا وشغلت فيما بعد وظائف إدارية في الجنوب، وكان لهم الفضل في تحقيق المنفعة للبلاد، وهذه الفئة من التلاميذ لم تتنكر لثقافتها العربية بل كانوا يترددون على المدرسة في المساء بعد الخروج من المدارس الفرنسية وفي أوقات العطل.

لقد كان الشيخ مبارك الميلي يلتقي بكل هؤلاء التلاميذ على اختلاف ظروفهم وأعمارهم، ويقوم بعمله التربوي والتعليمي رغم نقص الوسائل والمضايقات التي كان

يتعرض لها أثناء الحملات التفتيشية التي تقوم بها السلطات الاستعمارية دون سابق إنذار، لكن ذلك لم يثن من إرادته بل كان يقبل على عمله بكل ارتياح.

كانت طريقة الشيخ الميلي تعتمد على التلقين، وهي طريقة قديمة، لكن التغير الذي أدخله هو جعل التلاميذ ينقدون ما يتلقنونه من معارف وعدم تقبلها مباشرة دون الوقوف عليها ومناقشتها، كما كان منهجه ينطلق من قواعد المنهج السلفي التي تتلخص في تقديم الشرع على العقل، وإتباع السلف الصالح في الفهم والتفسير، ورفض التأويل الكلامي والاستدلال بالآيات القرآنية، وقد كان بين الحين والآخر يذكر تلامذته بتاريخهم الإسلامي العربي، وكان يركز أثناء إلقائه للدروس على استخدام الأساليب العربية البليغة والفصيحة سواء في المدرسة أو في المسجد بل وحتى في جلساته العادية، وكان يهدف إلى محاربة العامية. ولتقوية حب الوطن لدى التلاميذ كان يلقنهم بعض الأناشيد ويستظهرها معهم في فترات معينة، ولأنه مربي قبل أن يكون مدرسا فإنه كان يراقب سلوك التلاميذ داخل الحرم المدرسي وخارجه، وإذا رأى أي اعوجاج إلا وسارع لإصلاحه لكونه محبا لفعل الخير (مزهود، 2006).

أما عن طريقته في التدريس فكانت تتمحور حول التلقين بالدرجة الأولى، حيث روى أحد تلاميذته للشيخ عبد الرحمان الجيلالي أنه كان:" يجلس متربعا وليس بيده مطبوعا ولا مخطوط، فيملي علينا وــاتي طبقة بعدنا فيملي عليها، وإملاؤه كله إرتجالي، وهذا يصعب على كثير ممن تعاطوا تدريس العلوم بالمعاهد الشمالية، يملي بالارتجال بالنحو والصرف والفقه ومخارج الحروف والمنطق، فتعجبنا ففهمنا أن الرجل أعجوبة زمانه ذكاء وذو فكر جبار وعبقريته نادرة قلة أن تجد مثلها اليوم في غيره وذو ملكة راسخة في جميع الفنون.

الخاتمة:

من خلال ما تقدم نستنتج بأن إستراتيجيات الإصلاح الوطني التي اتبعها الشيخ مبارك الميلي كان لها أثر بالغ في توعية الفرد والمجتمع الجزائري، امتدت جذورها إلى مختلف المناطق الجزائرية، استطاع على إثرها تعليم اللغة العربية في الأطوار الثلاث معتمدا على المدرسة والقرآن الكريم، كما حارب البدع والخرافات التي تنافي العقيدة الإسلامية السمحاء، من خلال محاربة الطرق الصوفية والطرقية التي تمزج بين الشيعة تارة والشعوذة عقائد الجهل تارة أخرى، كما إهتم بالموروث الحضاري للأمة الجزائرية ودوره في التمسك بالوحدة الوطنية.

المراجـــــــع:

بن الطاهر، علي. (2001). مبارك الميلي وجهوده في الحركة الإصلاحية في الجزائر (1897-1945)، (رسالة ماجستير غير منشورة)، قسم التاريخ كلية العلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية، قسنطينة.

بوحناش، نورة. (2019). آليات الوعي الصوفي عند الشيخ مبارك الميلي. مجلة البصائر االإلكترونية.

بوصفصاف، عبد الكريم. (1998). جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945، دار البعث للطباعة والنشر ،قسنطينة.

تاريخ الإسترجاع: 2022/02/18، https://elbassair.dz/4586/

صاري، أحمد. (2001). مبارك الميلي ودوره في الحركة الإصلاحية في الجزائر، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 16(01)، 5-15.

فضلاء، محمد الحسن (2014)، المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر. غرناطة، الجزائر، ص469.

قشاشني، علي وشقرون، الجيلالي. (2020). الجهود التربوية والإصلاحية للشيخ مبارك الميلي بمدينة الأغواط وضواحيها. دراسات وأبحاث المجلة العربية للدراسات والأبحاث في العلوم الإنسانية والإجتماعية، 12(01)، 787-797.

مريوش، أحمد. (1999). مبارك الميلي شيخ المؤرخين الجزائريين، مجلة إتحاد المؤرخين الجزائريين، الطبعة الأولى، وسام للإعلام والنشر والإشهار، الجزائر.

مزهود، سليم. (2006). مفهوم الخطاب الإصلاحي عند الشيخ مبارك الميلي. (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة قسنطينة، الجزائر.

الميلي، مبارك. (2001). رسالة الشرك ومظاهره. دار الراية للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية.